

أسرارُ العلاقة بين العَدالةِ والعِبادةِ عند الإمامِ سَعِيدِ النُّورِ سِي

أ.د. بنعيسى بويوزان

جامعة محمد بن عبد الله / فاس

المملكة المغربية

توطئة :

تكتسي " العدالة مع العبودية " أهمية قصوى في فكر بديع الزمان سعيد النورسي رحمه الله، فقد جعل العلاقة بينهما - في غير ما موضع من " رسائل النور " - من المقاصد الأربعة الأساسية والعناصر الأصلية في القرآن الكريم، من ذلك مثلا قوله: «اعلم أن مقاصد القرآن الأساسية وعناصره الأصلية أربعة : التوحيد، والرسالة، والحشر، والعدالة مع العبودية»^(١)، وأحيانا نجده رحمه الله يورد ضمن هذه المقاصد الأربعة " العدالة "، دون ذكر " العبودية "، كما في قوله « تدور تلك المقاصد والغايات على الأقطاب الأربعة: وهي " التوحيد، والنبوة، والحشر، والعدالة »^(٢).

لهذا فإن المتأمل في مختلف أجزاء " رسائل النور "، يجد بأن النورسي رحمه الله، يعرّج كثيرا على الربط بين العدالة والعبودية ربطا وثيقا، حتى إنه لا يذكر أحد الطرفين إلا بتلازم مع الطرف الآخر تصرحا أو تلميحا، بما فيهما من تجسيد عميق للغاية السامية التي أُنِطَتْ بالإنسان في هذا الكون البديع الفسيح المتقن الصنعة إلى أبعد الحدود، وهي العبادة وإخلاص العبودية لله جل وعلا، إعلانا لطاعته سبحانه وانقيادا لأوامره تبارك وتعالى، وهو ما يقابله عز وجل بعدل إلهي مطلق، فيزيد العابد الشاكر

(١) المشنوي العربي النوري ص ٧٥، وراجع الشعاع الحادي عشر من كتاب الإشعاعات ص ٣١٠، وراجع أيضا إشارات الإعجاز ص ٢٤ و ص ٤٠.

(٢) المشنوي العربي النوري، ص ٢٣٠.

من فيض رحمته، ويؤمنُ عليه بالحسنى وزيادة، وفي المقابل يرصد عذابه للجاحد الكافر، فيجعل معيشته في هذه الحياة الدنيا ضَنْكاً، ويحشره يوم القيامة أعمى .

١ - مفهوم العبادة لدى الإمام النورسي رحمه الله :

ما دامت العبادة من أعظم المقاصد في القرآن الكريم، فإن النورسي رحمه الله، عرفها تعريفاً جامعاً مانعاً قال فيه: «إن معنى العبادة هو سجودُ العبد بمحبة خالصة وتقدير وإعجاب في الحضرة الإلهية وأمام كمال الربوبية والقدرة الصمدانية والرحمة الإلهية مشاهداً في نفسه تقصيره وعجزه وفقره. نعم، كما أن سلطنة الربوبية تتطلب العبودية والطاعة، فإن قدسيَّتها ونزاهتها تتطلب أيضاً أن يُعلن العبدُ - مع استغفاره برؤية تقصيره - أن ربّه منزّه عن أي نقص، وأنه مُتعالٍ على جميع أفكار أهل الضلالة الباطلة، وأنه مقدّس من جميع تقصيرات الكائنات ونقائصها. أي يعلن ذلك كله بتسبيحه، بقوله: سبحان الله. وكذا قدرة الربوبية الكاملة تطلب من العبد أيضاً أن يلتجئ إليها، ويتوكل عليها لرؤيته ضعف نفسه الشديد وعجز المخلوقات قائلًا: الله أكبر بإعجاب وتقدير واستحسان تجاه عظمة آثار القدرة الصمدانية، ماضياً إلى الركوع بكل خضوع وخشوع. وكذا رحمة الربوبية الواسعة تطلب أيضاً أن يُظهر العبدُ حاجاته الخاصة وحاجات جميع المخلوقات وفقرها بلسان السؤال والدعاء، وأن يعلن إحسان ربه وآلاء العميمة بالشكر والثناء والحمد بقوله: الحمد لله. أي أن أفعال وأقوال الصلاة تتضمن هذه المعاني. ولأجل هذه المعاني فُرضت الصلاة من لدنه سبحانه وتعالى»^(٣).

فمن الواضح أن هذا التعريف الجامع، يجعل العبادة خيطاً نورانياً يربط بين العبد المخلوق بما فيه من عجز وتقصير، وبين خالقه سبحانه بما له من الكمال المطلق في ذاته جل وعلا وفي صفاته وأقواله وأفعاله سبحانه، وهي علاقة طاعة العبد للمعبود سبحانه، ملؤها المحبة الخالصة والتقدير والإعجاب، فيُظهِرُ هذا العبد الضعيف العاجز تَدَلُّهُ لمعبوده سبحانه في سجوده وركوعه وقيامه - وفي سائر عباداته - أملاً في أن يُقَوِّيَ ضعفه، ويشد أزره أمام غواية الشهوات، ووساوس النفس المجبولة على حبه، وأمام دعاوى أهل الضلال بما يدعون إليه من ضلال وجحود، فيتخذون الشيطان من دون الرحمن ولياً.

(٣) النكتة الثانية من الكلمة التاسعة من اللمعة الحادية والعشرين، وراجع أيضاً ما قاله في الشعاع الحادي عشر من الشعاعات، ص ٢٩١ .

وعليه فإن العبادة تسمو بالنفس الإنسانية وتزكو بها عن تلك الشهوات التي تخلد بصاحبها إلى الأرض ما دام قد اتبع هواه، فخدمت فيه جذوة المحبة الإلهية، وعمي قلبه عن إدراك الغاية التي خلق من أجلها، ففي معرض حديثه عن قوله عز وجل ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: ٢١-٢٢)، قال النورسي: « فالخطاب هنا رمز إلى فوائد ثلاث: مقابلة مشقة التكليف بلذة الخطاب.. وأن ترقى الإنسان من حضيض الغيبة إلى مقام الحضور إنما هو بواسطة العبادة.. وأيضاً إشارة إلى أن المخاطب مكلف بجهات ثلاث: باعتبار قلبه بالتسليم والانقياد، ومن جهة عقله بالإيمان والتوحيد، وبالنظر إلى قلبه بالعمل والعبادة»^(٤).

فالإنسان كله بما أودعه الله جل وعلا فيه من جوارح، وبما فيه من قلب وعقل وجسد، إنما خلق للعبادة، لأن وجود المعبود سبحانه ووحدانيته، يستحق العبادة دون سواه^(٥)، بل إن خلق الكون كله مما يدركه الإنسان ومما لا يدركه، إنما يدفع العبد الطائع إلى العبادة، وتُسَوِّقُهُ إليها، ففي أثناء حديثه المستفيض عن الآيات القرآنية الكريمة السابقة من سورة البقرة، قال النورسي: « فاعلم! أنها إشارة إلى التهييج على العبادة ببيان عظمة قدرة الصانع، وإلى التشويق عليها بالامتنان. كأنه يقول: أيها الإنسان! إن الذي سخر لك الأرض والسماء يستحق أن تعبده.. وكذا إيماء إلى فضيلة البشر وعلو قيمته ومكرمته عند الله، كأنه يقول: إن الذي أكرمكم بأن هيأ الأجرام العلوية والسفلية بعظمتها لاستفادتكم، لا بد أن تظهروا لياقتكم للكرامة بعبادته»^(٦).

فحيثما حَلَّقَ الإنسان العابد المتذلل لله تعالى ببصره إلى آفاق الكون البعيدة والقريبة، يشعر بعظمة خالقه جل وعلا، فيسارع إلى مزيد من التقديس له سبحانه، والخضوع والتذلل له تبارك وتعالى آناء الليل وأطراف النهار، لأن كيانه كله ينطق بالعبادة، ويشتاق إليها ما دام قد عرف الحق، وقد نَوَّرَ اللهُ قلبه بالإيمان.

٢ - مفهوم العدالة لدى الإمام النورسي رحمه الله :

وكما أن هذا الكون الفسيح المتقن الصنعة من لدن الله عز وجل مجال رحب

(٤) إشارات الإعجاز، ص ١٥٨.

(٥) نفسه ص ١٥٧.

(٦) نفسه، ص ١٦١، وراجع الشعاع الثاني من الإشعاعات، ص ٢٥.

يستشعر فيه العبد المؤمن عظمة الله تعالى، فيسارع إلى العبادة بلا وسائط^(٧)، فإن هذا الكون ذاته يضم العدل الإلهي المطلق في أجلى مظاهره، يقول النورسي: « وانظر إلى الكون أجمع، لقد ضم العدل الإلهي جميع موجوداته تحت جناح ميزانه ويديم موازنة الأجرام العلوية والسفلية، ويعطيها التناسب والتلاؤم الذي هو أهم أساس للجمال، ويجعل كل شيء في أفضل وضع وأجمله، ويعطي كل ذي حياة حق الحياة، فيحق الحق ويحد من تجاوز المعتدين ويعاقبهم.. فشاهد الجمال الباهر جمال هذه العادلةية الإلهية»^(٨).

وإذا تأملنا هذا المفهوم، نجد بأن النورسي يميز فيه بين أمرين كبيرين شملهما العدل الإلهي:

أ - أولهما: العدل في عموم الخلق، بحيث إن الله عز وجل خلق كل شيء بقدر وحكمة لا يعلمه إلا هو سبحانه، فأعطى لكل حيَّ حقَّ الحياة، ووضع كل مخلوق في مكانه الذي خلق من أجله، وعلى الهيئة التي تناسبه، وفي الوضع الذي يلائمه في إتقان بلغ منتهاه في كل شيء، " صُنِعَ اللهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ " .

ب - ثانيهما: العدل في خصوص أفعال الإنسان من دون سائر المخلوقات، وهنا تمتزج العبادة بالعدالة على نحو بديع متقن غاية الإبداع والإتقان، بل إن العبادة ذاتها عدل إلهي مطلق، يترتب عن أدائها الثواب للعابد، بقدر ما يترتب عن تركها العقاب للعاصي^(٩)، يقول الإمام النورسي: « نعم! إنه ليس هناك سلطان عظيم دون أن يكون له ثواب للمطيعين وعقاب للعاصين. فلا بد من أن السلطان السرمدي - وهو في علياء الربوبية المطلقة - له ثواب للمنتسبين إليه بالإيمان والمستسلمين لأوامره بالطاعة، وعقاب للذين أنكروا عظمتهم وعزته بالكفر والعصيان. ولا بد من أن ذلك الثواب سيكون لا ثقاً برحمته وجماله، وذلك العقاب سيكون ملائماً لعزته وجلاله»^(١٠).

فالأمر واضح غاية الوضوح، فالكون كله خلقه الله عز وجل، وسخره - عدلاً منه سبحانه - للإنسان من دون سائر المخلوقات ليكون له عوناً على العبادة من جهتين:

أ - الأولى: من جهة الاعتبار، بحيث إن تأمل الإنسان العاقل وتدبره في آيات الله جل وعلا، في هذا الكون البديع، يدفعه ويشوقه - على حد تعبير النورسي - إلى العبادة ويحفزه على الطاعة والانقياد لعظمة الله عز وجل.

(٧) إشارات الإعجاز، ص ١٥٦ .

(٨) الشعاعات، الشعاع الرابع، ص ٩٠ .

(٩) إشارات الإعجاز، ص ١٦١ .

(١٠) الشعاعات، الشعاع الحادي عشر، ص ٢٦٣ .

ب - الثانية : من جهة الانتفاع، بحيث إن الإنسان يتمتع بما في الكون كله من مأكّل ومشرب ومنكح ومركب، ليتقوى به على الطاعة والانقياد لله تعالى في يسر وسهولة، لأن الله عز وجل بعدله المطلق، خلق الإنسان أصلاً على هذه الهيئة التي تُلزمه الرجوع إلى غيره من مخلوقات الله تبارك وتعالى، ليتنفع بها في معاشه وحياته ليستمر في عبادة الله تعالى حتى يأتيه اليقين .

وعليه فإن الإنسان الذي ينتفع من كَوْنِ الله أَجْمَعِهِ ولا يؤدي حقه المتمثل في العبادة لله تعالى والانقياد له سبحانه بالائتمار بأوامره والأئْتِجَارِ عن رَوَاجِرِهِ، فقد تجبر وطنى وجحد وكفر، فكان من العدل الإلهي المطلق أن يُعاقَبَ على قدر جرمه، إن في هذه الحياة الدنيا أو في الآخرة، وحتى وإن بدا أنه في هذه الحياة الدنيا في نعمة وترف، إلا أنه لا يدري أن الله عز وجل يُملي له ليزداد إثمًا، يقول النورسي: « - فاعلم! أنا كثيراً ما نرى الظالم الفاجر الغدار في غاية التنعم، ويمرّ عمره في غاية الطيب والراحة. ثم نرى المظلوم الفقير المتدين الحسن الخلق ينقضي عمره في غاية الزحمة والذلة والمظلومية، ثم يجيء الموت فيساوي بينهما. وهذه المساواة بلا نهاية تُري ظلماً. والعدالة والحكمة الإلهيتان اللتان شهدت عليهما الكائنات منزهتان عن الظلم؛ فلا بد من مجمع آخر ليرى الأول جزاءه والثاني ثوابه فيتجلى العدالة الإلهية»^(١١)، ومن ثم، فإن سلطان العدل الإلهي جعل العبادة فيصلاً بين الثواب والعقاب في الآخرة بعد الامتحان في دار الدنيا^(١٢).

ولكن النورسي بحسبه الرهيف، وبما نوره الله به مما يفيض به على من يشاء من عباده، يرى بأن العدل الإلهي المطلق قد اقتضى بأن يجعل العبادة في الحياة الدنيا بما هي دار عمل، مرآة تنعكس فيها أسرارٌ تحدد طبيعة الحياة التي يحيها الإنسان سواء كان طائعاً منقاداً لله تعالى، أم كان جاحداً عاصياً له سبحانه، كما يظهر ذلك من خلال ما يلي:

٣ - أسرار العلاقة بين العدالة والعبادة وتجلياتها :

يقول الإمام النورسي : « اعلم! أن الله خلق الإنسان في تركيب عجيب، ووحدة في كثرة؛ بسيطٌ وهو مركب، فردٌ وهو جماعة، له أعضاء وحواس ولطائف، لكل في

(١١) إشارات الإعجاز ، ص ٦٦ ، و كثيراً ما تحدث النورسي رحمه الله عن هذا في غير ما موضع من " رسائل النور " ، راجع مثلاً الشعاعات ، الشعاع الحادي عشر ، ص ٢٨٧ - ٢٨٨ ، والشعاع الخامس عشر ، ص ٦٣٧ - ٦٣٨ ، و ص ٦٦٧ ، و إشارات الإعجاز ، ص ١٩٢ .

(١٢) المثنوي العربي النوري ، ص ٦٤ ، و راجع ما قاله أيضاً في المصدر نفسه ، ص ٩٠ .

ذاته المّ ولذة مع تألمه وتلذذه من انفعالات الكل وتأثرات أخواته؛ بدليل سرعة التعاون والإمداد بينها. فمن حكمة هذه الخلقة جعل الإنسان مظهرًا لأنواع اللذائد ولأقسام النعم ولأصناف الكمال - لاسيما في الآخرة - إن سلك في سبيل العبودية.. وكذا جعله محلاً لأنواع الآلام ولأشكال العذاب ولأقسام النقم، إن ضل في طريق الأنانية. فألم وجع السن غير ألم وجع الأذن. ولذة العين غير لذة اللسان، واللمس والخيال والعقل والقلب وهكذا»^(١٣)، فالجوارح الإنسانية كلها إما أن تعيش في أنواع مختلفة من اللذائد في الحياة الدنيا وفي الآخرة أيضا - وعلى نحو أكبر - وإما أن تعيش في أنواع مختلفة من الآلام في الحياتين كليهما أيضا، فهي تعيش اللذائد إن سلك بها الإنسان سبيل العبودية والطاعة والانقياد لله تعالى، وتعيش الآلام إن سلك بها سبيل الغي والضلال والجحود، فالعدل الإلهي فوق ذلك كله، لا يجعل اللذة واحدة لدى الجوارح كلها، ولا الآلام كذلك، فلذة العين وآلامها غير لذة الأذن وآلامها، وهكذا سائر جوارح الإنسان، سواء مما له علاقة بحياته المادية المحسوسة أو بحياته المعنوية المجردة، فلكل منها لذتها وألمها بحسب ما يقتضيه العدل الإلهي.

ومعنى هذا، أن العدالة الإلهية اقتضت أن يكون الجزء من جنس العمل، فإن كان الإنسان عابدا لله تعالى، فحريّ به أن يتلذذ بحياته وأن يسعد بها مهما كانت طبيعتها، قبل اللذة الكبرى والسعادة المثلى في الآخرة، وأما إن كان عاصيا جاحدا، فقمّن به أن يتألم وينكد بحياته، حتى وإن كانت تبدو في الظاهر منعمة مترفة، مما سيورثه ذلًا وشقاوة في الآخرة، ليتوج به سوء الدرب المعوج الذي سلكه في دنياه؛ وهذا ما أكده النورسي بقوله: « ولأجل هذا السر الدقيق فإن الأفعال والآلاء، الجزئية منها والكلية، المتمركزة في منتهى دائرة الكثرة، كالرزق والشفاء ولاسيما الاهتداء والإيمان وأمثالها من الأفعال والآلاء التي تنتج الشكر وتبعث على العبادة والحمد والمحبة والعبودية والثناء؛ إنما هي إحسان مباشر لرب العالمين وإنعام مباشر لسلطان الموجودات وأثر مباشر لهديته وفعله»^(١٤).

فكل ما عدده النورسي هنا من الآلاء والنعم العظيمة، إنما هي فيض إلهي عميم، يفيض به الله عز وجل على عباده العابدين المنقادين، إحسانا منه سبحانه، وتفضلا منه

(١٣) المثوي العربي النوري، ص ١٧٩، وراجع أيضا ما قاله في الشعاعات، الشعاع الحادي عشر، ص ٢٦٤.

(١٤) الشعاعات، الشعاع الثاني، ص ٢٦، وراجع الشعاع السابع، ص ١٦٨، وإشارات الإعجاز، ص

عليهم، جزاء طاعتهم وانقيادهم لأوامره سبحانه، وهذا «كُنْظُم الأجرة مع الخدمة، لأن العبادة حق الله على العبد، والإعانة إحسانه تعالى لعبده.»^(١٥).

فالعدالة الإلهية تقابل العبادة بالإحسان، والطاعة بالإعانة، فالعابد إذا سأل الله عز وجل أجابه، وإذا استعان به أعانه، وإذا تقرب إليه بكل أشكال العبادة، واجبات ونوافل، قرَّبَه اللهُ عز وجل إليه وأدناه منه سبحانه بحفظه ورضاه «فكما أن الخالق القدير الحكيم قد خلق الحياة خلاصة جامعة مستخلصة من الكائنات يُحَسِّدُ فيها مقاصده العامة وتجليات أسمائه الحسنى. كذلك جعل الرزق في عالم الحياة مركزاً جامعاً للشؤون الربانية، خالقاً في ذوي الحياة غريزة الاشتهاء وتذوق الرزق، ليفسح بذلك المجال لأهم غاية لخلق الكائنات وحكمتها وهي جعل المقابل في شكر ورضا دائمين وكليين يتمان بكل خضوع وعبودية تجاه ربوبيته وتودده سبحانه»^(١٦).

وانطلاقاً من هذه العلاقة المباشرة بين العبادة والعدالة، بحيث إن حياة الإنسان انعكاس مباشر لطبيعة عيشه سلبياً أو إيجابياً وطاعة وعصيانياً، فإن الإمام النورسي أورد تجليات ثلاثة كبرى تتجلى فيها أسرار هذه العلاقة في حياة الإنسان، بحيث تنطبع بالطابع الغالب عليه في حياته تلك، إن خيراً فخيرٌ، وإن شراً فشرٌ، وهذا ما يظهر على النحو التالي :

أ - التجلي الأول، العبادة لذة :

فكثيراً ما نجد النورسي رحمه الله يتحدث في مختلف أجزاء "رسائل النور"، عن اللذة بما هي نتاج العبادة، والشواهد عن هذا كثيرة جداً، من ذلك مثلاً قوله عن تجربته الشخصية: «إن أصفى لذة وأتقى سعادة لحياتي هذه، إنما هو في الإيمان. أي: الإيمان الجازم بأني مخلوق من خلقتني ورباني، فأنا مصنوعه وعبده وتحت رعايته وعنايته ومحتاج إليه كل حين، وهو ربي وإلهي وهو الرحيم والرؤوف بي. فأيماني هذا لذة ما بعدها لذة، لذة كافية وافية دائمة وسعادة خالصة نقية لا يعكرها ألم»^(١٧).

فالذي ينطق بهذه العبارات التي تجسد أسمى معاني الانقياد والخضوع لجلال الله جل وعلا ولسلطانته سبحانه، لا تعبر عن نفسه فقط، وإنما تعبر عن كيف ينبغي أن يكون الإنسان أصلاً في حياته اليومية، حتى يستشعر لذة الحياة التي خلق فيها، ويستشعر أيضاً الغاية السامية التي خلق من أجلها، وهي العبادة، وبالتالي فإنه من

(١٥) إشارات الإعجاز ، ص ٣١ .

(١٦) الشعاعات ، الشعاع السابع ، ص ٢٢١ .

(١٧) الشعاعات ، الشعاع الرابع ، ص ٨٤ ، وراجع الشعاع الحادي عشر ، ص ٢٩١ .

العدل الإلهي - كما قلنا سلفاً - أن يسبح الله سبحانه نعمة اللذة على عبده الطائع المنقاد له سبحانه، وهذا ما يُشَوِّقُ المؤمن إلى مزيد من الخضوع والتعبد كلما أحس بالفيوضات الربانية تغمره من كل جانب، حتى يتبوأ المقام السامي بين يدي الله عز وجل، يقول: «واعلم أيضاً! أن العبادة سبب لسعادة الدارين.. وسبب لتنظيم المعاش والمعاد.. وسبب للكمال الشخصي والنوعي.. وهي النسبة الشريفة العالية بين العبد وخالقه»^(١٨)، والذي يحس بهذه السعادة تغمره مكافأة له على هذه الطاعة، لا شك أنه «يحس في قعر روحه لذة عالية وسعادة عاجلة، كلما أيقظ قلبه وحرَّك وجدانه وأحسَّ روحه، استزاد سعادة واستبشر بفتح أبواب جنات روحانية له»^(١٩).

فالعبد الطائع إذن، تفتح له بعبادته أبواب جنات روحانية في حياته الدنيا تَنبِجِسُ من دواخله التي كلَّها بالذكر والعبادة والطاعة، فيحس بلذتها دون سواه، فيستبشر بها قبل الجنة الدائمة في الآخرة، وكل ذلك آت من إحسان الله سبحانه إليه لقاء طاعته وانقياده.

ولا يكتفي النورسي بهذا، وإنما يضرب لنا مثلاً لهذه اللذة والسعادة التي يحس بها التَّقِيُّ العابد في حياته اليومية، بقصة تمثيلية ملخصها قوله: «إن كنت تريد أن تعرف مدى ما في الإيمان من سعادة ونعمة، ومدى ما فيه من لذة وراحة، فاستمع إلى هذه الحكاية القصيرة:

خرج رجلان في سياحة ذات يوم، من أجل الاستجمام والتجارة. فمضى أحدهما وكان أنانياً شقيماً إلى جهة، ومضى الآخر وهو رباني سعيد إلى جهة ثانية... فالأناني المغرور الذي كان متشائماً لقي بلداً في غاية السوء والشؤم في نظره، جزاءً وفاقاً على تشاؤمه... أما الآخر الرجل الرباني العابد لله، والباحث عن الحق، فقد كان ذا أخلاق حسنة بحيث لقي في رحلته مملكة طيبة هي في نظره في منتهى الروعة والجمال... ولدى عودته إلى أهله، يلقي ذلك الرجل فيسأل عنه، وعن أخباره، فيعلم كل شيء عن حاله فيقول له:

- (يا هذا لقد جنت! فان ما في باطنك من الشؤم انعكس على ظاهرك بحيث أصبحت تتوهم أن كل ابتسامه صراخ ودموع، وأن كل تسريح وإجازة نهب وسلب. عُذ إلى رشدك، وطهر قلبك.. لعل هذا الغشاء النكد ينزاح عن عينيك. وعسى أن تبصر

(١٨) إشارات الإعجاز، ص ١٤٧.

(١٩) نفسه، ص ٣٨.

الحقيقة على وجهها الأبلج. فإن صاحب هذه المملكة ومالكها وهو في منتهى درجات العدل والمرحمة والربوبية والاعتدال والتنظيم المبدع والرفق.. وأن مملكة بمثل هذه الدرجة من الرقي والسمو مما تريك من آثار بأمر عينيك... لا يمكن أن تكون بمثل ما تريه أو هامك من صور).....

فيا نفسي! اعلمي أن الرجل الأول هو الكافر أو الفاسق الغافل فهذه الدنيا في نظره بمثابة مأتم عام، وجميع الأحياء أيتام سيكون تألماً من ضربات الزوال وصفعات الفراق... أما الرجل الثاني، فهو المؤمن الذي يعرف خالقه حق المعرفة ويؤمن به، فالدنيا في نظره دار ذكر رحماني، وساحة تعليم وتدريب البشر والحيوان، وميدان ابتلاء واختبار الإنس والجان..

فالإيمان إذن يضم حقاً بذرة معنوية منشقة من طوبى الجنة... أما الكفر فانه يخفي بذرة معنوية قد نُفِثَتْ زقوم جهنم.

فالسلامة والأمان إذن لا وجود لهما إلا في الإسلام والإيمان^(٢٠)، فالعدالة الإلهية اقتضت أن تجعل الوجود الخارجي لكل من المسلم المؤمن، والكافر الجاحد، انعكاساً مباشراً لأحوالهما النفسية الداخلية، فالكافر الذي رفض الخضوع لأمر الله تبارك وتعالى، والتسليم له سبحانه، بادلته لقاء معصيته، أن جعل الكون كله في عينيه مأتماً لا ينتهي، بينما المؤمن العابد الذي صفت سريره بطاعة الله عز وجل، أنعم عليه بأن جعل الكون كله روضة غناء لا نظير لحسنها وبهائها.

وهذا يعني أن إحساس الإنسان بلذة الحياة ومتعتها، أو بمرارة العيش ومأساته، إنما يتوقف ضرورة على طاعة الخالق سبحانه أو معصيته، وذلك هو العدل الإلهي الذي يعطي لكل ذي حق حقه، ولكل امرئ ما كسبت يده، خاصة وأن الإنسان «مخلوق مسكين يتجرع آلام صفعات الزوال والفراق باستمرار.. فرغم كل هذا، فانه يجد بانتسابه إلى السلطان ذي الجلال - بالإيمان والعبودية - مستنداً قوياً، ومرتكزاً عظيماً يحمي إليه في دفع أعدائه كافة، ويجد فيه كذلك مدار استمداد يستغيث به لقضاء حاجاته وتلبية رغباته وآماله كافة، فكما ينتسب كلُّ إلى سيده ويفخر بشرف انتسابه إليه، ويعتز بمقامه لديه، كذلك فان انتساب الإنسان بالإيمان، إلى التقدير الذي لا نهاية لقدرته، وإلى السلطان الرحيم ذي الرحمة الواسعة، ودخوله في عبوديته

(٢٠) الكلمة الثانية من اللمعة الحادية والعشرين، وراجع أيضاً الشعاعات، الشعاع الرابع، ص ٧٣، والشعاع الحادي عشر، ص ٢٨٦.

بالطاعة والشكران، يبدل الأجل والموت من الإعدام الأبدي إلى تذكرة مرور، ورخصة إلى العالم الباقي!. فلكم أن تقدروا كم يكون - هذا الإنسان - متلذذاً بحلاوة العبودية بين يدي سيده، وممتناً بالإيمان الذي يجده في قلبه، وسعيداً بأنوار الإسلام، ومفتخراً بسيده القدير الرحيم شاكراً له نعمة الإيمان والإسلام»^(٢١).

ب - العبادة قوة :

إن الإنسان خلقه الله عز وجل أصلاً ضعيفاً وهلوعاً، مما يعني أنه مجبول على البحث عن مصادر القوة والشجاعة ليتجاوز بها حالات ضعفه وخوفه التي تراوده باستمرار في هذه الحياة الدنيا، وهذه مشيئة الله عز وجل، لكن الإنسان المؤمن العابد، يجد أن أعظم مصدر للقوة والشجاعة لديه يكمن في العبادة واللِّوَاذِ بِجَنبِ اللَّهِ جَلِّ وَعَلَا، يقول الإمام النورسي - وأسوق كلامه هذا على طوله لأنه يعسر عن التلخيص - «إن الإنسان بفطرته ضعيف جداً، ومع ذلك فما أكثر المنغصات التي تورثه الحزن والألم، وهو في الوقت نفسه عاجز جداً، مع أن أعداءه ومصائبه كثيرة جداً، وهو فقير جداً مع أن حاجاته كثيرة وشديدة، وهو كسول وبلا اقتدار مع أن تكاليف الحياة ثقيلة عليه، وإنسانيته جعلته يرتبط بالكون جميعاً مع أن فراق ما يحبه وزوال ما يستأنس به يؤلمانه، وعقله يريه مقاصد سامية وثماراً باقية، مع أن يده قصيرة، وعمره قصير، وقدرته محدودة وصبره محدود.

فخلاصُ روح الإنسان من تلك المضايقات، وانسلاخها من تلك الغفلة والحيرة، وخروجها من تلك الأمور التافهة الزائلة، لا يكون إلاً بالالتجاء إلى باب القيوم الباقي - وهو المنعم الحقيقي - بالتضرع والتوسل أمامه مكتوف اليدين شاكراً حامداً لمحضلة نعمة المتجمعة، مستعيناً به وحده، مع إظهار العجز أمام جلاله وعظمته بالركوع، وإعلان الذل والخضوع - بإعجاب وتعظيم وهيام - بالسجود أمام كماله الذي لا يزول، وأمام جماله الذي لا يحول..

وهكذا فروح البشر التي هي في منتهى العجز وفي غاية الفقر والحاجة، والتي هي في حيرة من ظلمات المستقبل وفي وَجَلٍ مما تخفيه الأيام والليالي... فيلتجئ بالصلاة إلى باب مَنْ هو المعبود الذي لم يزل وَمَنْ هو المحبوب الذي لا يزال، مناجياً ذلك الباقي السرمدى في هذه الدنيا الفانية، وفي هذا العالم الفاني، وفي هذه الحياة المظلمة والمستقبل المظلم، لينشر على أرجاء دنياه النور من خلال صحبة خاطفةٍ ومناجاةٍ

(٢١) الشعاعات، الشعاع الحي عشر، ص ٢٦١.

موقته، وليتور مستقبله ويضمّد جراح الزوال والفراق عما يحبه من أشياء وموجودات ومن أشخاص وأصدقاء وأحباب، بمشاهدة توجه رحمة الرحمن الرحيم، وطلب نور هدايته، فينسى - بدوره - تلك الدنيا التي أنسته، والتي اختفت وراء العشاء، فيسكب عبرات قلبه، ولوعة صدره، على عتبة باب تلك الرحمة، ليقوم بوظيفة عبوديته النهائية قبل الدخول فيما هو مجهول العاقبة، ولا يعرف ما يفعل به بعده، من نوم شبيه بالموت، وليختم دفتر أعماله اليومية بحسن الخاتمة. ولأجل ذلك كله يقوم بأداء الصلاة، فيتشرف بالمثل أمام من هو المعبود المحبوب الباقي بدلاً من المحبوبات الفانية، وينتصب قائماً أمام من هو القدير الكريم بدلاً من جميع العجزة المتسولين، وليسمو بالمثل في حضرة من هو الحفيظ الرحيم لينجو من شر من يرتعد منهم من المخلوقات الضارة»^(٢٢).

لهذا، فإن الله تعالى بعدله المطلق يبادل هذا العبد الخائف الوجل من جبروته سبحانه شجاعة وأمناً، يجد لهما في نفسه لذة لا مثيل لها، يحس بها وهي تغمر روحه التي تستلذ الخوف من الله تعالى دون سواه، فتزداد تذلالاً له سبحانه، وإخلاصاً في العبادة والتبتل، يقول: «نعم، إن العارف بالله يتلذذ من عجزه وخوفه من الله سبحانه. وحقاً إن في الخوف لذة! فلو تمكّنا من الاستفسار من طفل له من العمر سنة واحدة، مفترضين فيه العقل والكلام: ما أطيب حالاتك وألذها؟ فربما يكون جوابه: هو عندما ألوذ بصدر أمي الحنون بخوفي ورجائي وعجزتي.. علماً أن رحمة جميع الوالدات وحنانهن ما هي إلاّ لمة تجل من تجليات الرحمة الإلهية الواسعة، ومن هنا وجد الذين كُمل إيمانهم لذة تفوق أية لذة كانت في العجز ومخافة الله، حتى إنهم تَبَرَّؤوا إلى الله براءة خالصة من حولهم وقوتهم ولاذوا بعجزهم إليه تعالى واستعاذوا به وحده، مقدّمين هذا العجز والخوف وسيلتين وشفيعين لهم عند البارئ الجليل»^(٢٣)، وما أحسن قوله في كلامه هذا «ومن هنا وجد الذين كُمل إيمانهم لذة تفوق أية لذة كانت في العجز ومخافة الله»، لأن في هذا العجز لله، وفي هذه المخافة من الله تعالى، سرُّ التجاوز لله للهلح والضعف الذي جُبل عليه الإنسان أصلاً، فطوفان الشهوات والمغريات لا ينتهي مدى الحياة، وهذا ما يعيه العبد الطائع التقي، فيجعل الخوف من الجليل والتذلل له سبحانه، سفينة لا ينزل منها مدى الحياة أيضاً، لأنه يدرك أن سر النجاة

(٢٢) اللمعات، النكتة الخامسة من الكلمة التاسعة من اللمعة الحادية والعشرين، وراجع ما قاله رحمه الله عن نفسه حين افتتح التشهد في صلاته بالليل، في الشعاعات، الشعاع السادس، ص ١٢٩.

(٢٣) الكلمة السابعة من اللمعة الحادية والعشرين.

يكن في العيش في سفينة الخوف بالعبادة والتضرع لله تعالى، وأن الغرق كل الغرق في الدنيا والآخرة، إنما يمكن في التكبر والتنطع الذي هو من أعمال العصاة الجاحدين الذين يملكهم الضعف أبداً أمام سلطان الهوى والشهوات، فيطبع الله على قلوبهم بالقلق والضرر أبداً لقاء جحودهم ذلك، وهذا ما قرره النورسي رحمه الله حين قال: «فالمؤمن يعتقد بما يقول لذا يجد في كل شيء باباً يفتح إلى خزائن الرحمة الإلهية، فيطرقة بالدعاء، ويرى أن كل شيء مسخر لأمر ربه، فيلتجئ إليه بالتضرع. ويتحصن أمام كل مصيبة مستنداً إلى التوكل، فيمنحه إيمانه هذا الأمان التام والاطمئنان الكامل... نعم! إن منبع الشجاعة ككل الحسنات الحقيقية هو الإيمان والعبودية، وأن منبع الجبن ككل السيئات هو الضلالة والسفاهة. فما أحوج روح البشر العاجزة الضعيفة الفقيرة إلى حقائق العبادة والتوكل، وإلى التوحيد والاستسلام! وما أعظم ما ينال منها من ربح وسعادة ونعمة! فمن لم يفقد بصره كلياً يرى ذلك ويدركه... نحصل من هذا: أن سعادة الدنيا أيضاً - كالأخرة - هي في العبادة وفي الجندية الخالصة لله.»^(٢٤)

فإنه جل وعلا، بعدله المطلق، قوى الإنسان الضعيف بخوفه، وأمنه بأمنه وسلطانه، فأكرمه بعد ذلك كله بالحسنات الحقيقية الناتجة عن الإيمان والعبودية، بينما السفهية الضال، أورثه سبحانه بعدله ضلالة وسفاهة وقلقا، فلا يجد للحياة طعماً ولا لنفسه مستقراً ولا أمناً، وأكثر من ذلك، أن الله عز وجل أورثه السيئات الحقيقية لقاء تلك الضلالة والسفاهة ليجمع بذلك شري الدنيا والآخرة، لذلك، فخلاصة الأمر كله كما قال النورسي رحمه الله: «أن سعادة الدنيا أيضاً - كالأخرة - هي في العبادة وفي الجندية الخالصة لله.»

ج _ التجلي الثالث، العبادة فطرة إنسانية :

وهذا التجلي الثالث لا يقل أهمية في فكر النورسي رحمه الله عن التجلين السابقين، خاصة وأنه يقرر منذ البداية بأن «العبادة مقتضى الفطرة»^(٢٥)، وهذا يعني أن الفطرة السليمة، والطبع الإنساني السوي، يعتقد اعتقاداً جازماً بأنه مفطور على العبادة التي هي المقصد الأول من الخلق في هذا الكون، وكل من اعتقد غير ذلك، يكون قد خرج أصلاً عن الفطرة السليمة، وأثر منذ البداية الخروج عن الطبع الإنساني السليم،

(٢٤) الكلمة الثالثة من اللمعة الحادية والعشرين .

(٢٥) إشارات الإعجاز ، ص ١٦١ .

وبالتالي فإنه يكون ضد الفطرة وضد الإنسانية ذاتها، وضد المنهج الإلهي الحق الذي خلق الكائنات كلها، وعلى رأسها الإنسان، لغاية واحدة وهي العبادة، يقول الإمام النورسي: « ونرى تجليات ألوهية مطلقة ومعبودية عامة ضمن هذه الربوبته وضمن مظاهر استجابة كل كائن حي على حدة استجابة فعلية لمقابلة ألوف الأنماط من العبادات الفطرية والاختيارية التي تؤديها جميع المخلوقات ولاسيما ذوي الحياة وبخاصة طوائف الإنسان، يراها العقل السليم ويبصرها الإيمان. كما تخبر عنها جميع الكتب السماوية والأنبياء الكرام عليهم السلام. »^(٢٦).

فالعبادة إذن فطرة إنسانية يدركها كل إنسان سليم، يراها بعقله السليم وبإيمانه الذي تشع أنواره في قلبه، وكل من يسير في اتجاه معاكس، ويختار منهجا غير هذا المنهج السليم القويم، يكون أصلا ضد الفطرة الإنسانية، وضد الإسلام والإيمان أيضا، وبالتالي فهو يحتاج إما إلى من يعيده إلى الفطرة الإنسانية السليمة، وهي مهمة الرسالات السماوية التي أرسلها الله عز وجل مع كافة أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام، وإذا لم يَسْتَجِبْ لتلك الدعوات والنداءات الإلهية، والرسالات السماوية الخالدة التي نَسَخَتْهَا بعد ذلك التاريخ الطويل من الدعوة، رسالة محمد صلى الله عليه وسلم، فإنه آتئذ يكون قد أثر العناد والمكابرة ضد فطرته هُوَ التي فُطِرَ عليها أول مرة، وبالتالي، فإنه من الطبيعي أن يستحق العقاب الإلهي الذي سطره العدل الإلهي المطلق.

ثم إن الإمام النورسي رحمه الله يضرب، على عادته، مثلا متميزا لهذا التجلي، حين فسر قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ (النحل: ١٢٨)، فقال: « إذا أردت أن ترى أن إقامة الصلاة واجتناب الكبائر وظيفة حقيقية تليق بالإنسان ونتيجة فطرية ملائمة مع خلقته.. فتأمل في هذه الحكاية التمثيلية القصيرة واستمع إليها:

فيا نفسي الكسول!! إن تلك الساحة التي تمر مؤرراً بالحرب هي هذه الحياة الدنيا المائجة.. وأما ذلك الجيش المقسم إلى الأفواج فهو الأجيال البشرية.. وأما ذلك الفوج نفسه فهو المجتمع المسلم المعاصر.. وأما الجنديان الاثنان؛ فأحدهما هو العارف بالله والعامل بالفرائض والمجتنب الكبائر، وهو ذلك المسلم التقى الذي يجاهد نفسه والشيطان خشية الوقوع في الخطايا والذنوب.. وأما الآخر: فهو الفاسق

(٢٦) الشعاعات، الشعاع الخامس عشر، ص ٦٤٨، وراجع أيضا إشارات الإعجاز، ص ١٥٤.

الخاسر الذي يلهث وراء هموم العيش لحد اتهام الرزاق الحقيقي، ولا يبالي في سبيل الحصول على لقمة العيش أن تفوته الفرائض وتتعرض له المعاصي.. وأما تلك التدريبات والتعليمات، فهي العبادة وفي مقدمتها الصلاة.. وأما تلك الحرب فهي مجاهدة الإنسان نفسه وهواه، واجتنابه الخطايا ودنايا الأخلاق، ومقاومته شياطين الجن والأنس، إنقاذاً لقلبه وروحه معاً من الهلاك الأبدي والخسران المبين؛ وأما تانك الوظائف الاثنان؛ فإحدهما منح الحياة ورعايتها. والأخرى عبادة واهب الحياة ومربيها والسؤال منه والتوكل عليه والاطمئنان إليه»^(٢٧)، وقد خلص الإمام النورسي من هذا المثل الذي يبرهن عن مدى الإدراك العميق لديه لماهية الإنسان ولطبيعته التي طبعه الله عز وجل بها في هذا الكون، فقال رحمه الله: «إن فطرة الإنسان وما أودع الله فيه من أجهزة معنوية تدلّان على أنه مخلوق للعبادة؛ لأن ما أودع فيه من قدرات وما يؤديه من عمل لحياته الدنيا لا تبلغه مرتبة أدنى عصفور - الذي يتمتع بالحياة أكثر منه وأفضل - بينما يكون الإنسان سلطان الكائنات وسيد المخلوقات من حيث حياته المعنوية والأخرى بما أودع الله فيه من علم به وافتقار إليه وقيام بعبادته»^(٢٨).

فالعبادة لدى الإنسان استجابة فطرية لخلجات نفسه، وأداء لحقها الذي خلقت من أجله، وهي أيضاً إرسال لجوارحه لكي تقوم بوظائفها الطبيعية التي أودعها الله جل وعلا فيها، وخلقها من أجلها، وهذا ما يولد لدى الإنسان الطائع لله تعالى كل مناحي السعادة واللذة والقوة، وهما تجليان تحدثنا عنهما من قبل، لأنه بذلك يستجيب لنداء الفطرة التي فطره الله تعالى عليه، وكل خروج عن هذه الفطرة، إنما هو قمع لهذه الجوارح، وخروج بها عن الطريق الذي رسمه الله سبحانه وتعالى حين خلقها أول مرة، فيكون الإنسان آنئذ جاحداً ظالماً لنفسه بكل ما فيها من جوارح، لأنه أراد أن يسخرها لغير ما خلقت له، تكبراً وعناداً، فيحرمها من لذتها وتمتعها وراحتها في الدنيا قبل الآخرة، ومن يفعل هذا فقد ظلم نفسه، وجهل الغاية السامية التي خلق من أجلها، فعميت عليه الحقيقة بعدما ضل عن الطريق، وانحرف عن الفطرة التي فطره الله تعالى عليها، «وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون».

ولكن لتحقيق هذه العبودية التي يحس معها العبد المنقاد لله جل وعلا بهذه العناصر الثلاثة التي تحدثنا عنها باقتضاب شديد - وفق ما تتطلبه شروط إنجاز هذا

(٢٧) اللغات، اللمعة الحادية والعشرون، الكلمة الخامسة.

(٢٨) المصدر نفسه.

البحث - بما هي لذة وقوة وتحقيق للفطرة الإنسانية التي فطر الله تبارك وتعالى الناس عليها، نجد أن الإمام النورسي رحمه الله تعالى يلح إلحاحاً شديداً في كل جزء من أجزاء " رسائل النور "، على الإخلاص في العبودية لله تعالى، ويراه - وهو مُحِقٌّ في ذلك - العنصرَ الأولَ وَقُطْبَ الرِّحَى الذي تتحقق به العبادة المستوجبة للعدالة الإلهية المطلقة، يقول على سبيل المثال لا الحصر: « يا إخوة الآخرة! ويا أصحابي في خدمة القرآن! إعلموا - وأنتم تعلمون - أن الإخلاص في الأعمال ولا سيما الأخروية منها، هو أهم أساس، وأعظم قوة، وأرجى شفيح، وأثْبُتُّ مرتكز، وأقصر طريق للحقيقة، وأبرز دعاء معنوي، وأكرم وسيلة للمقاصد، وأسمى خصلة، وأصفى عبودية.

فما دام في الإخلاص أنوار مشعة، وقوى رصينة كثيرة أمثال هذه الخواص.. ومادام الإحسان الإلهي قد ألقى على كاهلنا مهمة مقدسة ثقيلة، وخدمة عامة جلييلة، تلك هي وظيفة الإيمان وخدمة القرآن.. ونحن في غاية القلة والضعف والفقر، ونواجه أعداء ألداء ومضايقات شديدة، وتحيط بنا البدع والضلالات التي تصول وتجول في هذا العصر العصيب.. فلا مناص لنا إلاّ بذل كل ما في وسعنا من جهد وطاقة كي نظفر بالإخلاص.. فنحن مضطرون إليه، بل مكلفون به تكليفاً، وأحوج ما نكون إلى ترسيخ سر الإخلاص في ذواتنا، إذ لو لم نفرز به لضاع منا بعض ما كسبناه من الخدمة المقدسة - لحد الآن - ولما دامت ولا استمرت خدمتنا، ثم نحاسب عليها حساباً عسيراً، حيث نكون ممن يشملهم النهي الإلهي وتهديده الشديد في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً ﴾ (البقرة: ٤١)، بما أخللنا بالإخلاص فأفسدنا السعادة الأبدية، لأجل مطامع دنيوية دنيئة، مقبته، مضرة، مكدره، لا طائل من ورائها ولا فائدة، إرضاء لمنافع شخصية جزئية تافهة، أمثال الإعجاب بالنفس والرياء، ونكون أيضاً من المتجاوزين حقوق إخواننا في هذه الخدمة ومن المتعدين على نهج الخدمة القرآنية، ومن الذين أساءوا الأدب فلم يقدرُوا قدسية الحقائق الإيمانية وسموها حق قدرها»^(٢٩).

هذه إذن باختصار شديد ملامح الأسرار الكبرى للعلاقة بين العبادة والعدالة لدى الإمام النورسي وتجلياتها، مع أملي أن تتاح لي الفرصة لسط الحديث عنها في بحث مستقل يكون أشمل وأعم في هذا الموضوع، وعسى أن يكون قريباً بإذن الله جل وعلا.